****

**وزارة التعليم العالي والبحث العلمي**

**وزارة التعليم العالي والبحث العلمي**

**جامعة 8 ماي 1945 قالمة**

**قسم الفلسفة**

**وبمساهمة مخبر الفلسفة والدراسات الإنسانية والاجتماعية ومشكلات الإعلام والاتصال،**

 **والجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية**

 **ينظم الملتقى الوطني الحضوري الموسوم بــــــــ:**

**البيوطيقا: حوار جديد بين العلم والفلسفة**

**يوم 02 ماي 2023**

**1) الأستاذ: حاج علي**

**جامعة 8 ماي 1945 قالمة**

**2)الطالبة: خلاف إيمان**

**جامعة 8 ماي 1945 قالمة**

**عنوان المداخلة: من الإنسان إلى ما بعده**

مقدمة:

هناك جدال حاد حول مستقبل الإنسان في الأوساط العلمية في الغرب وخصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو كذلك نقاش صاخب في الأوساط الإعلامية والمواقع الالكترونية والمنتديات الأنجلوساكسونية بالأساس. والحديث عن إشكالية مستقبل الإنسان، والشكل الذي سيكون عليه، وتحوله وتطوره أو انقراضه؛ مرتبط بسياق التكنولوجيا الرفيعة التي أصبحت عاملا متميزا في تحديد المصير الإنساني.

قد يحيلنا عنوان هذه المقالة إلى أطروحة فوكوياما ذائعة الصيت بشأن «نهاية التأريخ»، غير أن هذه الأطروحة هي أطروحة آيديولوجية بالكامل، وقد ثبتت هشاشتها، كما اعترف بذلك فوكوياما ذاته، عندما تأكّد لنا أنّ الليبرالية والأسواق الحرّة ليست الاكتشاف الأخير في حلبة المبتدعات الفكرية البشرية. أما فكرة «ما بعد الإنسانية»، فليست أطروحة آيديولوجية، رغم مفاعيلها المؤثرة على الصعيد الآيديولوجي، بقدر ما هي بعض النتائج المترتّبة على صعود تطبيقات الذكاء الاصطناعي وخوارزمياته العامّة التي باتت تشكّل المعلم المميز لحياتنا في عصر الثورة التقنية الرابعة التي أصبحنا نعيش اليوم على أعتابها.

يرتبط مصطلح «ما بعد الإنسانية» (Posthumanism) ارتباطاً وثيقاً بالإنسان المعزّز رقمياً بصورة مكثفة، ويشيرُ إلى حالة وصفها العالم البحّاثة ذائع الصيت راي كيرزويل في كتابه الأشهر «المرحلة التفرّدية قريبة»، ثمّ أكمل رؤيته في كتاب آخر بعنوان «عصر الآلات الروحية».

مفردة «التفرّدية» (Singularity) الواردة في عنوان كتاب كيرزويل مفردة لها أهميتها الكبيرة، وذات مدلول دقيق، وتعني بشكل عام حالة تختلف نوعياً - وعلى نحو جذري - عما هو سابق لها، وما هو لاحق عليها. وفي حالة العالم الرقمي والذكاء الاصطناعي، تعني تحديداً تلك الحالة التي لا يمكن فيها للإنسان متابعة استمرارية وجوده من غير دعمٍ (جزئي أو كلي) من الوسائط الرقمية التي ستتجاوز مرحلة الوسائط الخارجية (مثل الذاكرات الحافظة للبيانات، والهواتف النقالة، وقارئات الكتب والنصوص... إلخ)، لكي تصل مرحلة التداخل البيولوجي مع وظائف الكائن الحي (الرقاقات المزروعة في الدماغ البشري، وأجهزة تدعيم السمع أو الرؤية، والوسائط التي تسمح بخلق بيئات افتراضية ذات سمات محددة، ولأغراض محدّدة هي الأخرى... إلخ). وما يدعو للدهشة أن كيرزويل وضع تأريخاً هو 2029، رأى فيه أن الكائن البشري لا بد أن يستعين بعده بشكل من أشكال المؤازرة الرقمية الجزئية. أما لحظة التحوّل التفرّدي الثوري العميق والشامل، فستحصل مع عام 2045! فحينها، لن يعود بمستطاع الكائن البشري التعامل مع بيئته من غير قدرات احتسابية، ومُعالِجات للمعلومات والبيانات تفوق قدرته الذاتية، مهما توفّر على قدرات بيولوجية وعقلية متفوقة.

**تجاوز المحدوديات البشرية:**

إنّ التوق البشري لاكتساب قدرات جديدة غير مسبوقة توقٌ قديم قِدَم نوعنا البشري ذاته، إذ لطالما جاهدنا في توسيع حدود وجودنا البشري في المستويات الاجتماعية والجغرافية والعقلية كافة، وثمة ميلٌ طاغٍ ومستديم لدى بعض الأشخاص - في أقلّ تقدير - للبحث عن انعطافة يمكننا من خلالها تجاوز أي معضلة وجودية أو محدودية يمكن أن تطال الحياة البشرية أو السعادة البشرية أيضاً.

وتعدُّ ملحمة غلغامش الرافدينية ذائعة الصيت الوثيقة البشرية الأولى التي أكّدت سعي الكائن البشري للخلود من جهة، ويقينه آخر الأمر بأنّ هذا الخلود لن يتحقق عن طريق الاستمرارية الجسدية، بل باستمرارية الأثر الطيّب والفعل الصالح. وهنا، نلمح هذا الإسقاط الفلسفي الذي ينطوي على ثنائية متضادة، إذ لطالما تمّ تصوير المسعى البشري لتجاوز المحدوديات الطبيعية الحاكمة باعتباره مسعى ينطوي على ازدواجية يدفعها ما يمكن توصيفه بِـمفهوم «الغطرسة»، ثمّ يدافع هؤلاء الذين يرون في هذا السعي البشري غطرسة خالصة عن وجهة نظرهم بالقول إنّ بعض طموحات هذا المسعى ستندفع خارج سقف المحددات الطبيعية الضرورية لإدامة الحياة البشرية، وبالتالي ستكون مجلبة لبعض النتائج السلبية العكسية، إذا ما تحقّقت بالفعل على أرض الواقع. يمكننا أن نلحظ شيئاً من هذه الثنائية في الميثولوجيا الإغريقية: سرق «بروميثيوس» النار من زيوس (كبير الآلهة الإغريقية)، وأعطاها للبشر الفانين، الأمر الذي ترتّب عليه تحسين دائمي للوضع البشري بسبب مفاعيله وتأثيراته، لكن بروميثيوس تلقّى عقاباً صارماً من زيوس بسبب فعلته تلك.

تمثل «ما بعد الإنسانية» تتويجاً للحلم اليوتوبي البشري في الانعتاق من أسر المحدوديات البيولوجية الحاكمة للوجود البشري (المرض، والوهن، والشيخوخة، والخرف، والموت)، ويمثل السعي للخلود الوجه الآخر لما بعد الإنسانية. وهنا، يمكننا القول إنّ الوسائل التقنية وتداخلاتها العميقة صارت هي المرتكز الذي يُراد منه تحقيق ما عجزت عن تحقيقه الأحلام اليوتوبية.

ولا بد هنا من التأكيد على أنّ «ما بعد الإنسانية» هي أبعد من مجرد تطويرات تقنية تحصل للكائن البشري، وتجعله يغادر مرتبة الكينونة البشرية البيولوجية الكلاسيكية، بل إن المدلول الفلسفي (الأنتولوجي) (الوجودي) للكينونة البشرية ذاتها ستعادُ صياغة مفهومها بعد مغادرة مفهوم «مركزية الكائن البشري» في محيطه البيولوجي، كما هو حاصل اليوم، حيث سنشهد إعادة صياغة كلّ الأنساق البيولوجية والمعرفية التي تميّز الوجود البشري الحالي. ومن هنا، جاء مفهوم «نهاية الكائن البشري الكلاسيكي»، ليكون خصيصة مميزة لعالم ما بعد الإنسانية.

 **الإنسانية العابرة للكائن البشري**:

هناك مصطلح آخر شائع أيضاً في هذا الميدان الفكري، وأعني به مفهوم «الإنسانية العابرة» (Transhumanism) الذي قد يستطيب البعض أن يسمّيه (الأنسنة الانتقالية).

تمثّل الإنسانية العابرة جسراً ما بين الكائن البشري الكلاسيكي الذي نعرف وبين عصر ما بعد الإنسانية، وتتحدّد بالتعزيز التقني للقدرات البشرية، من غير مجاوزة مركزية الوجود البشري. وعليه، فإنّ ما وصفه كيرزويل في الكائن البشري المعزز تقنياً إنما يمثّل ملمحاً في عالم «الإنسانية العابرة للكائن غير المعزّز تقنياً» فحسب، ولا تمتدّ برؤيتها نحو الكائن البشري في عالم ما بعد الإنسانية. ولعلّ بعض ملامح رؤية كيرزويل باتت قريبة من عتبة التطبيق واسع النطاق، وأظنّ أنّ معظم صغارنا الذين لم يتجاوزوا العقد الأول من أعمارهم سيكونون الكائنات البشرية الأولى التي ستشهد تطبيق التعزيز التقني عليها في العقدين المقبلين.

ويمكن تصوير الإنسانية العابرة للكائن البيولوجي الحالي غير المعزّز تقنياً بأنها توسِعة وامتداد لفكرة الإنسانية (humanism) ذاتها التي يبدو واضحاً أنّ الإنسانية العابرة مشتقّة جزئياً منها. ويعتقد الإنسانيون أنّ الكائنات البشرية كينونات مهمّة، وأنّ الماهية الفردية للأفراد البشريين موضوع جوهري عظيم الأهمية كذلك، ويتشارك المنافحون عن فكرة الإنسانية العابرة للكائن غير المعزّز تقنياً الإيمان مع الإنسانيين بالقيم الإنسانية المتفق عليها في عالم اليوم، لكنهم إلى جانب هذا لا ينفكّون يؤكّدون دوماً على القدرات الفائقة التي يمكن أن يحوزها الكائن البشري، وهي خليقة في الوقت ذاته بأن تجعله يتمايز جوهرياً عن الكيفية التي يبدو بها في وقتنا الحاضر. وبمثل ما يمكننا اللجوء إلى الوسائل العقلانية لتطوير الوضع البشري، والارتقاء به وبالعالم الخارجي معاً، يمكننا بالكيفية ذاتها اللجوء إلى الوسائل العقلانية نفسها لتطوير ذواتنا والارتقاء بها.

إنّ موضوعات مثل «ما بعد الإنسانية» و«الإنسانية العابرة للكائن البشري البيولوجي المعروف كلاسيكياً» لهي موضوعات استراتيجية باتت أبعد ما تكون عن التصوّرات اليوتوبية لبعض المفكّرين والفلاسفة الذين قرأنا عنهم في عصر التنوير الأوروبي أو عصر الثورات التقنية (بكلّ أطوارها)، وليس أمامنا سوى التفكّر الجاد والمعمّق بهذه الموضوعات، خصوصاً أننا صرنا نشهد بواكيرها، وستترتّب عليها استقطابات حادة (إلى جانب الاستقطابات العالمية الخطيرة السائدة في يومنا هذا)، تلك الاستقطابات التي ستعيد تشكيل المشهد العالمي بطريقة درامية لم نعهدها أبداً.

**ما بعد الإنسان: سلطة التكنولوجيا ومحاولة إعادة اختراع الإنسانية**

«مفهوم الإنسان انفجر تحت ضغط مزدوج من التقدم العلمي والمخاوف الاقتصادية العالمية. فبعد تدفق نظريات ما بعد الحداثة، وما بعد الاستعمار، وما بعد الصناعة، وما بعد الشيوعية، بل حتى ما بعد النسوية المشكوك في مصداقيتها، يبدو أننا دخلنا مأزق ما بعد الإنسان». بهذه العبارات تبدأ الباحثة الأسترالية روزي بريدوتي مؤلفها المعنون بـ«ما بعد الإنسان» الذي قامت بترجمته حنان مظفر، والصادر مؤخراً عن سلسلة (عالم المعرفة) التابعة للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت.

نموذج الرجل الفيتروفي

كان الإنسان هو النموذج الأمثل لكائن واثق ومُسيطر على كل ما حوله. هكذا رآه بروتاجوراس ودافنشي، حالة من التطلع إلى الكمال الفردي وبالتبعية الجماعي. إنها فكرة (الثقة). ثم يأتي هيغل لتصبح أوروبا هي الوصف الكوني للعقل الإنساني. وتتساءل المؤلفة عن موقف (الآخر) من هذه الرؤية الغارقة في الثقة، لتجيب ــ حسب توني ديفيز ــ «بأن كل العلوم الإنسانية حتى الآن كانت إمبريالية. تتطرق إلى الإنسان من منظور الطبقة الاقتصادية، والجنس والعرق.. يكاد يكون من المستحيل التفكير في جريمة لم تُرتكب باسم الإنسانية». ويأتي جيل ما بعد 1968 رافضاً الحركة الإنسانية في شكلها الكلاسيكي والاشتراكي، مُفككاً نموذج الكمال الإنساني المتوافق مع الكون، الذي صممه دافينشي ـ الرجل الفيتروفي ـ وأصبح الكمال هنا عبر الاستقلالية، وتقرير المصير الذاتي. لا يمكن استثناء سيطرة الاستعمار وأسطورة تفوّق الرجل الأبيض من الأمر.
لكن.. رغم نموذج الإنسان، وصياغة النظرية والرؤية من قبيل الرجل (الذكر) والثورة على هذه السلطة من خلال (النسوية) وبعدما تم الكشف عن أن مصطلح (مختلف عن) يعادل (أقل من). تذكر المؤلفة أن هناك تناقضاً ملحوظاً.. «فروايات نهاية العالم التي تُصاغ حول نهاية الإنسان/الرجل.. تتجاهل قدرة الحركة الإنسانية على التجديد، وحرفياً إعادة الصياغة». فالرجل الفيتروفي ينهض مراراً وتكراراً من رماده، فيستمر في التمسك بالمعايير الكونية ـ نماذج الهيمنة الاقتصادية والسياسية الحديثة إن جاز التعبير، التي تتوارى وقتاً دون أن تنتهي ـ وتشير المؤلفة في موقف لاحق إلى أن الاقتصاد السياسي الانتهازي لرأسمالية البيولوجيا الوراثية يساعد على تشتيت، بل محو الفروقات بين الإنسان والأصناف الأخرى، عندما يتعلق الأمر بالربح منها. وتدلل على ذلك برمز الرجل الفيتروفي لدافنشي، المرسوم على فنجان قهوة ستاربكس، ليسود شعار «أنا أتسوّق.. إذن أنا موجود».

**موقف مُلتبس:**

وتأتي العلمانية كوجه أساس من الإنسانية، لكن أصبح الإيمان بها مُشابهاً لما انتقدته من الإيمان بالأديان أو الموروثات العقلية الغيبية ـ تستشهد المؤلفة بفرويد وتحذيره من الإلحاد المتعصب في كتابه «مستقبل وهم» ـ فالإيمان الخرافي هو نفسه بالضبط اليوم الإلحاد المتطرف الذي يدافع عنه ريتشارد دوكينز. فالعلم المحتفى به اليوم ليس محصناً ضد الخطابات والممارسات القومية والعنصرية، لذا يجب مقاومة أي ادعاء بالنقاء والموضوعية والاستقلالية العلمية مقاومة شديدة. فكونك علمانياً يجعلك متواطئاً مع المواقف الاستعمارية الغربية الاستعلائية الجديدة، بينما يكون رفضك لإرث التنوير، متناقضاً بطبيعته مع أي مشروع نقدي.. إنها دوامة خانقة. وبالبطع نتأكد من هذه المعضلة عندنا في الشرق، حيث يبدو أي صوت تنويري مرادفاً للعمالة الغربية والاستعمار، وما شابه من قائمة الاتهامات المعهودة.

وتعود المؤلفة لتوضح في ظل هذه الأزمة أن «ما بعد الإنسانية» هي.. اللحظة التاريخية التي تمثل نهاية المعارضة بين الإنسانية ومناهضة الحركة الإنسانية، وتتبع نهجاً حوارياً مختلفاً يتطلع بإيجابية أكثر نحو بدائل جديدة. وترى أن الحل أو أن هذه البدائل تتمثل في مفهوم (أوروبا البدوية) أو (التحول إلى الأقلية) أي.. مقاومة القومية وكراهية الأجانب والعنصرية، وهي العادات السيئة لأوروبا الامبراطورية القديمة، ذلك من خلال اتخاذ موقف حازم ضد متلازمة (أوروبا الحصن) وإحياء التسامح بوصفه أداة للعدالة الاجتماعية.

من ناحية أخرى يتمثل مصطلح (أوروبا البدوية) هذا بأن تتحول أوروبا إلى أقلية، أي.. رفض الدور التبشيري الذي خصصته أوروبا لنفسها، باعتبارها مركزاً مزعوماً للعالم. وفي الأخير لا تنفي المؤلفة أن فكرتها هذه قد تبدو خيالية، إلا أنها استباقية لاختلاق رؤى ومشاريع بديلة للأزمة القائمة بالفعل.

**الهوامش:**

**[1] – FUKUYAMA, F : « the World’s most dangerons ideas : transhumanism » Foreirg Policy (144), 2004, 42 – 43**

**[2] – KIM, Toffoltti : cyborgs and Barbie Dolls. I.B.Tauris, 2007**

**[3] – Ibid, p : 10 – 11**

**[4] – Ibid, p : 11**

**– Badminton, Neil (ed) :[2000] Post humanism, Newyork. Palgrave**

**– Fukuyama, F :  [2000] Our Posthuman Future : consequences of the biotechnology revolution/ Neww york/ Farrar, stransand Giroux**

**– Graham, Elaine :  [2002] Representations of the post human.**

**– Manchester University Press.**

**– Halberstam, Judith and Livingstone, Ira,(eds) : [1995] post human Bodies, Indiana University Press.**

**– Hassan, Ihab [1977] : « Prometheus as Prerformer : towars a Posthumanist culture? » in Michael Benamon and charles Carmella (eds) : Performence in Postmoden culture, Milwnker : center for Twentieth centry studies/ university of wisconsin-Milwankee, 201 – 217.**

**– Terranova, Tiziana : [1996] : «posthuman unbourded : Artificial EVOLUTION AND High-tech subcultures, in george Robinson, melindu Mash (eds) ? Future Natural : Nature, science, culture, London : routledge, 165 – 180**

**[5] – Ray Kurzweil : The singularity is near. Viking Press 2006. ويمكن الاطلاع على أعمال الباحث من خلال موقعه:**[**www.kurzweilai.net**](http://www.kurzweilai.net)**.**

**[6]  – ميشيل كاكو: رؤى مستقبلية، ترجمة سعد الدين خرفان. كتاب عالم المعرفة عدد: 270 يونيو 2001 ص: 12.**

**[7]  – أنظر: بورديو (اشراف): بؤس العالم ترجمة محمد صبح. الجزء الأول. دار كنعان 2010.**

**– بورديو (اشراف): بؤس العالم الجزء الثاني نهاية العالم. ترجمة سلمان حرفوش. دار كنعان 2010.**

**– بورديو (اشراف): بؤس العالم الجزء الثالث منبوذو العالم. ترجمة رندة بعث. دار كنعان 2010.**

**[8] – Beck, U : Sociéte de risque. Flammarion.2003.**

**[9] – أنظر مجلة بيت الحكمة – ملف حول فوكو العدد الأول أبريل 1986 ص: 18.**

**[10] – الشيخ  محمد والطائري ياسر: مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة. دار الطليعة، بيروت 1996، ص: 43.**

**[11] – للتوسع انظر: – محمد الجديدي: الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي، منشورات الاختلاف. الطبعة الأولى 2008.**

**[12] – فكوياما: نهاية التاريخ، ترجمة حسن الشيخ دار العلوم 1993.**

**[13] – نفسه، ص: 239 – 240.**

**[14] – نفسه، ص: 251.**

**[15] – FUKUYAMA , F : Trust : the social virtue and the creation of prosperity. Newyork Free press 1995.**

**[16] – ليوتار: الوضع ما بعد الحداثي. ترجمة أحمد حسان. دار شرقيات 1994 ص: 55 – 56.**

**[17] – للتوسع انظر: خالد ميار الادريسي: خطاب ما بعد الحداثة في العلاقات الدولية – دراسة تحليلية ونقدية لاستراتيجية تفكيك النماذج النظرية – أطروحة لنيل الدكتوراه في الحقوق. جامعة الحسن الثاني 2000. (غير منشورة).**

**[18] – أنظر: خالد ميار الادريسي: “نقد قيم ما بعد الحداثة نحو ترميم الذات الإنسانية” ضمن عبد السلام الطويل (تنسيق): سؤال الأخلاق والقيم في عالمنا المعاصر. أعمال الندوة الدولية للرابطة المحمدية للعلماء الدار البيضاء 25 – 26 – 27 ماي 2011، ص: 323 – 348.**

**[19] – Bell, : « the end of  ideologies in the west in, Jeffry Alexander, Seidmen (eds) : Culture and society Contemporary debates. Cambridge University Press .1990**